ســـيكولوجية التعصـــب

بقـــلم

الدكتـــور مصطفى زيور (**)

لعلنى لست فى حاجة الى بيان المعنى الذى يجب أن يستفاد من طـرح مشكلة اليوم للبحث والمناقشة تحت اشراف الجمعية الطبية للصحة العقلية وفى كنفها • فعندما تناولت الحديث فى هذه المسألة مع رئيس هذه الجمعية كان حديثنا يجرى فيها بوصفنا أطباء نفس معنيين بمشكلات الصحة العقلية فى مصر • ولما كانت هذه الجمعية قد أنشئت لبحث هذه المشكلات والعمل عـلى علاجها فقد صحت عزيمة الرئيس على أن يدرج مشكلة اليوم فى برنامج أعمال الجمعية ، وأن يكلفنى بطرح المشكلة أمامكم للبحث والمناقشة •

اطرح أمامكم اليوم اذن موضوع سيكلوجية التعصب بوصفه مشكلة من مشاكل الصحة العقلية فى مصر • وبعبارة أخرى اننا نسلم فى بداية هذا الحديث بأن التعصب اذا وصل الى درجة معينة من الحدة يصبح عاملا من عوامل تقويض وحدة المجتمع ، وينم عن اضطراب فى ميزان الصحة العقلية الاجتماعية ، مما يفسد تماسك المجتمع ويهدد كيانه • فالأمر لا يختلف فى نظرنا عما يحدث للفرد عندما تســـتبد به عوامل الصراع الداخلى فتمتل شخصيته ،ويختل توازنه ، ويصبح فى عداد المرضى •

ولدينا ما يدل على أن الوعى القومى قد أدرك خطورة المشكلة فيما بدا من اهتمام بالغ من كل صوب • فقد هب أولو الأمر من الأقباط والمسلمين جميعا

(*) محاضرة ألقيت فى ١٠ فبراير ١٩٥٢ بدار الحكمة تحت اشراف الجمعية المصرية للصحة العقلية ونشرت بمجلة (علم النفس) ، القاهرة ، دار المعارف مجلد (٧) فبراير / مايو ١٩٥٢ ، العدد (٣) ص ص ٢٨٥ ـ ٣٠٠ •

(**) ستاذ علم النفس بجامعة ابراهيم •

هبة قوية يذودون عن وحدة الأمة (*) · وجرت بالأمس على لسان الانبا متاؤوس عبارة رائعة تفصح أحسن الافصاح عن هذا الادراك القومى قال : «ان النار اذا شبت فى كنيسة يمكن اخمادها بقليل من الماء · أما اذا اندلعت ألسنة النيران فى وحدة الأمة فان ماء النيل كله لا يطفئها » ·

وان طرحنا لهذه المشكلة للبحث يفترض أمرين : الأول أننا نؤمن بأننا ازاء ظاهرة من الظاهرات التى تقبل البحث ، وأنه لا بد لنا من فهم لأسباب العلة وأصولها اذا أردنا لها علاجا ناجعا · والأمر الثانى أننا على استعداد لتجنيد قوانا لهذا البحث وأمثاله ، لأنه من غير المعقول ولا المقبول أن يقتصر عمل المشتغلين بعلم النفس فى مصر على تلقين الطلاب تجارب الفيران فى المتاهة ، أو تقديم العلاج النفسى لفرد مريض ، ثم يقفون مكتوفى الأيدى اذا حلت غمة بمجتمعنا · ان الوقت وقت تجنيد القوى ، فالعلم الذى لا يستطيع أن يسخر نفسه لخير الأمة فلا خير فيه ·

بقى أن مشكلة اليوم مشكلة شائكة من حيث انها مصدر لانفعالات شديدة ، ويكفى أن نذكر أن كلمة التعصب لم يرد ذكرها فى الصحف التى أشارت الى مشكلتنا حتى يتضح لنا أننا ازاء مادة قابلة للاشتعال ، ينبغى أن نتناولها فى كثير من الرفق والحذر ·

على أننا نحن معشر المشتغلين بعلوم النفس نعلم أن النفس الانسانية تنفر من الكشف عما يدور فى حناياها من ميول ، وتكره أن تواجه فى اخلاص ما تنطوى عليه نزعات ، ونؤمن بقول نيتشه : « ان الأخطاء تنجم أكثر ما تنجم من الجبن عن مواجهة الحقائق » · لابد لنا اذن من أن نستبدل بسياسة النعامة سياسة التبصر ، اذا كنا نؤمن بأن خير وسيلة لضبط الانفعال انما هى تحليل الانفعال ·

وان لنا فى تاريخ هذا العلم خير سند لما نذهب اليه · فلم يصل علم النفس الى شىء ذى جدوى الا بعد أن استطاع أحد رواده أعنى فرويد ألا

(*) نذكر القارىء بأن هذه الدراسة تمت عام ١٩٥٢ !!!

يجفل من أن يفتح عينيه على ما يدور فى قرارة نفسه مهما كان بغيضا ، وكلنا نعلم أن هذا هو الثمن الذى يجب أن يدفعه المريض اذا أراد لنفسه شفاء ٠

علينا اذن أن نتجمل بكثير من الشجاعة والأناة ، بل علينا أن نفتح أعيننا على ما يدور فى أنفسنا عند بحث التعصب حتى لا نصدر فى ما نقرر الا عن الحقيقة وحدها ٠ وقد يتندر أحدنا فيقول : ألا يكون البحث فى التعصب صادرا عن نوع من التعصب ؟ اننا نعلم أن الشفقة قد تكون رد فعل لما تنطوى عليه النفس من القسوة ، ولقد تبين من سيرة تولستوى الملقب بنبى الرحمة أنه كان بحذق تعذيب أفراد عشيرته ممن لميؤمنوا بمثله الأعلى، فكان سلوكه الرحيم لم يكن الا انتصارا على نزعاته الى القسوة والعنف ٠ ولكنكم قد ترون معى أنه لا بأس علينا فيما نصدر عنه اذا كانت الرحمة رائدنا ، وأنه خير لنا أن نصدر فى رحمتنا عن القسوة من أن نكون عاطلين عن القسوة والرحمـــة جميعـــا ٠

وبعد فان القضية الأولى فى هذا البحث أن التعصب ظاهرة اجتماعية لها بواعثها النفسية ، ولا يغير من الأمر شيئا أن يكون التعصب دينيا ، فقليل من التفكير يدلنا على أن التعصب الدينى لا يختلف لا فى مبناه ولا فى معناه عن أى نوع من أنواع التعصب التى تنشأ بين الأجناس أو بين الأحـــزاب السياسية أو بين المذاهب الاجتماعية وما الى ذلك ٠

ولقد أستطيع أن أسوق اليكم مثالا أستمده من خبرتى الاكلينيكية ، يدل فى وضوح على أن هذه الظاهرات التى تتصف بأنها دينية ، تنشأ أولا وقبل كل شىء من بواعث نفسية لا علاقة لها فى الأصل بالعقيدة الدينية ٠

جاءنى شاب يونانى على درجة عظيمة من الذكاء والثقافة ، يشـــكو أعراضا من نوع هستيريا القلق ، ، ثم اضطرابا عاما فى سلوكه وخاصـة نحو النساء ، فلم يكن يستطيع أن يخلد الى واحدة منهن ، بل كان يجد نفسه مدفوعا الى أن يتصيد قلوبهن الواحدة بعد الأخرى ، ثم يهجرهن سريعا ٠ قبلته للعلاج بالتحليل النفسى وقضينا فيه نحو سنة ونصف سنة شفى فى نهايتها شفاء تاما ٠ والمهم لدينا هنا أن هذا الشاب الذكى المثقف كان يعتنق الشيوعية

ثم كان ملحدا · ويجب أن أذكر أنه كثيرا ما كان يقحم فى حديثه أثناء التحليل مشاكل الدين والمجتمع ، ولكنى لم أناقشه فيها مرة واحدة ، لأن هذا ليس من مهمة التحليل كما هو معروف · وكم كانت دهشتى عظيمة عندما تبينت فى نهاية التحليل ، أن هذا الشاب شفى لا من أعراضه الهستيرية فحسب بل وتخلى عن شيوعيته والحاده · لا أقصد أنه أصبح متدينا متحمسا لدينه ، وانما أقلع عن تشبثه وتحمسه لفكرة الالحاد ·

ويضيق المجال هنا عن تفصيل القول فيما كشف عنه التحليل من المعانى السيكولوجية التى اكتنفت اعتناقه للشيوعية والالحاد · وسأكتفى بذكر الخطوط الرئيسية التى تتصل بهدفنا مباشرة ، كانت الخبرة الباثوجنية وما نجم عنها من اضطراب فى السلوك تنحصر فى علاقته بأمه أثناء سنوات الطفولة · فقد كانت أمه سيدة عصابية وكان سلوكها يتنازعه تياران · فمن ناحية كانت تختصه بعناية مفرطة وعطف زائد ، كان من شأنهما أن عطلا نموه الوجدانى ، اذ استمرأ هذا العطف وهذه الرعاية وتشبث بموقفه الطفلى منها ، ومن ناحية أخرى كانت حريصة شديدة الحرص على أن تربيه تربية مثالية ، تتفق مع قواعد التهذيب السائدة فى الأوساط الأرستقراطية ، وكانت تستعين فى ذلك بالمربيات الأجنبيات · وهكذا كان الطفل حائرا بين رغبة ملحة ، دفعه اليها سلوك أمه ، فى الاعتماد عليها اعتمادا تاما والاستمتاع بعطفها الزائد ، وبين قواعد ومثل يلقنها ، تضع حدودا لا يجب أن يتعداها · ولست فى حاجة الى الاشارة الى أن هذا السلوك المتناقض من قبل الأم ، كان صدى لما يعتلج فى نفسها من صراع ، وخاصة لما يحتدم فى نفسها من كراهية لمظاهر الرجولة والاستقلال · والنتيجة الحتمية من هذا كله أن الطفل شقى بشعور مرير بالخيبة ، دفعه عندما أدرك مرحلة البلوغ ، الى مناهضة كل ميل فى نفسه الى التواكل والاعتماد والاذعان ، بل كل ميل الى التعاطف وتبادل الرحمة ، فكأنه كان يخشى أن يؤدى به ذلك الى أن يعانى الشعور بالخيبة والمرارة من جديد · فكان نفورا من كل موقف عاطفى لا يكاد يقيم علاقة مع امرأة حتى يبادر بقطيعتها خشية أن يلقى منها القطيعة، وكان ناكرا مستنكرا لكل نظام يتضمن الحب والاذعان ، فأنكر النظام الاجتماعى السائد واعتنق الشيوعية بدوافع ذاتية ، كما أنكر اخلاصه لعقيدة أبويه واعتنق الالحاد · وهو فى هذا كله كاظ يناهض حنينه الى تلقى الحب

ورغبته الملحة فى الاخلاص والارتكان الى صدر رحيم ٠

وهكذا نستطيع أن نقرر أن الالحاد (أى التعصب ضد العقيدة الدينية) قد يكون رد فعل لرغبة عنيفة فى الايمان ، تتوجس النفس من عواقبها شرا ٠ وسنرى بعد قليل أن العكس قد يكون صحيحا ، بمعنى أن التدين الوسواسى والتعصب للعقيدة، قد يكون رد فعل لميول عنيفة نحو التمرد على سلطان الدين، وبصفة عامة على السلطان أيا كان نوعه ٠

وتحضرنى هنا قصة فكاهية تحمل معنى سيكلوجيا عميقا ٠ ذهب رجلان للصلاة فى الجامع ، فلما انتهيا منها جلسا يدعوان الله ٠ فقال الأول : اللهم اهدنى الصراط المستقيم ، اللهم قو ايمانى ٠ أما الثانى فقد انطلق قائلا : اللهم اهدنى صندوقا من الويسكى ٠ فأغضب ذلك الرجل الأول وصاح به كيف تجسر يا رجل وتنطق بهذا الكفر ؟ فأجابه الثانى فى هدوء : هون عليك يا صاحبى ٠ أنت ينقصك الايمان فتطلب من الله أن يقوى ايمانك ، أما أنا فلا ينقصنى الايمان ، وانما ينقصنى الصندوق ٠

لقد كان فى نيتى أن أستعرض أمامكم بعض الشـــواهد المستمدة من خبرتى الاكلينيكية من ناحية ، ومن الاختبارات التى تمت فى مصر والشرق الأوسط من ناحية أخرى ، ثم أن أشرككم معى فى استخراج النتائج ٠ ولكن يبدو لى أن الوقت لن يتسع لهذه الطريقة المطـــولة ، وأوثر أن أنفذ الى قلب الموضوع مباشرة ، أى أن أبدا بالنهاية ، على أن اعـود بكم بعد ذلك الى الأصـــول ٠

ومن أجل ذلك فاننى أطرح أمامكم السؤال الآتى : لم وقع حادث كنيسة السويس فى ذلك الوقت بالذات وفى ذلك المكان بالذات ؟ ان الأمر لا يحتـاج أن نكون من عماء النفس لكى نتبين أن الفترة الراهنة انما هى فترة انتقال الى الفعل ، فاضت فيها المشاعر حتى بلغت مرحلة التنفيذ والتعبير المادى ٠ أما السويس فهى احدى مدن القنال أى تلك المنطقة التى اتسمت حينذاك باستباحة العدوان بل بتمجيده ٠ ولكن ما الذى حدث ؟ ان هدف العـدوان انما هـو الانجليز فكيف ارتد العدوان على بعض زملاء الجهاد ؟ وهنا يحسن بنا أن نستعين بمعارفنا السيكلوجية ٠ اننا نعلم أن العدوان طاقة انفعالية لا بد لها من

منصرف ، ولا مناص من أن تتخذ لها هدفا تفرغ فيه شحنتها الزائدة · وفى الظروف الاجتماعية العادية ، يجد العدوان منصرفا فى أنواع النميمة وتجريح الغير أو فى النكتة اللاذعة · وعندما يصل العدوان الى درجة بالغة فى الشدة، أو عندما تتخاذل أساليب ضبطه ، فانه يميل الى الفتك فتكا مباشرا بمصدر النقمة · أما اذا استحال الوصول الى مصدر النقمة ، فان العدوان يلتمس هدفا آخر يصبح بمثابة كبش الفداء · وكلنا نعرف مثل المرؤوس الذى يكظم غيظه من سوء معاملة الرؤساء حتى اذا عاد الى بيته صب جام غضبه على أهله · ويدل احصاء حوادث العدوان على الزنوج فى الولايات المتحـــدة الجنوبية ، على ان هذه الحوادث تزداد زيادة ملحوظة كلما هبطت اســعار القطن وهو المحصول الرئيسى لهذه الولايات ، كأن الزنوج هم المسئولون عن هذه الضائقة المادية (١) ·

يحتمل العدوان اذن النقل أى استبدال هدف بهدف ، واذا حيل بينـــه وبين الافراغ فانه لا يلبث أن يرتد نحو الذات فتفتك النفس بنفسها · وتحضرنى هنا قصة تفصح عن معنى سيكولوجى عميق · فقد اعتادت طفلة ألمانية أثناء الحرب الماضية أن تعتدى على جاراتها من الأطفال اليهود · حتى اذا صـــدر الأمر باعتقال جميع اليهود بما فيهم الاطفال جعلت هذه الطفلة تبكى وتؤذى نفسها باللطم· فسألتها أمها: اتبكين رحيل هؤلاء اليهوديات التافهات ؟ فأجابت نعم يا أماه فلم يعد لدى من أصب عليه جام غضبى · فكأنها كانت تخشى أن تعرضها غيبة كبش الفداء الى أن تؤذى من تحب من أهلهـــا ، فالمحبـوب كثيرا ما يكون المصدر الأصيل للحرمان والخذلان والنقمة · فكأن قابلية العدوان للنقل تستخدم أحيانا لتخليص الحب من شوائب الكراهية وفى الابقاء على المحبوب ، وفى نهاية الأمر فى الابقاء على الذات ·

ان ظاهرة كبش الفداء من الظاهرات التى يعـــرفها الأنثروبولوجيون الاجتماعيون قبل أن يعرفها ويفسرها علماء النفس · ولقد أفرد جيمس فريزر بابا بأسره لهذه الظاهرة فى كتابه المشهور « الغصن الذهبى » والذى يهمنا منها الآن هو نشأتها كظاهرة اجتماعية ، ثم علاقتها بكيان المجتمع · تـدل الدراسات الأنثروبولوجية على أن ظاهرة كبش الفداء تقوم بوظيفة حيـوية فى ظروف معينة · ولنذكر بهذا الصدد موقف ألمانيا النازية من اليهود (٢) ·

فلقد كان فى اتخاذهم اليهود كبشا للفداء ما جنبهم أكثر من خطر ولو الى حين · فقد كان معظم أفراد الأمة الألمانية قبيل الحكم النازى يقيمون على شعور بالمرارة والحرمان وكان الشقاق وتنابذ الاحزاب ينذر بقيام ثورة أو حرب أهلية تفضى الى تقويض المجتمع الألمانى بأسره · فكأن العدوان على اليهود أفادهم فى تصريف قدر عظيم من النقمة مصدره الحقيقى ظروف حياتهم الداخلية ، كما دفعهم الى التماسك فحلت الوحدة محل التفكك · ولست فى حاجة أن أذكركم أن التعصب ضد اليهود والعدوان عليهم لم يشف غليلهم ولم يحل مشاكلهم الداخلية ، فاضطروا الى توجيه العدوان الى الدول المتاخمة، مما جرهم فى نهاية الأمر الى هزيمة منكرة وانهيار ذريع ·

وبعد فلقد تذكرون أنكم كنتم مدعوين الى الاستماع الى هذا الحديث يوم ٢٧ يناير الماضى ، وأنه تأجل بسبب حوادث ٢٦ يناير (*) · وكانت مذكراتى لهذا الحديث مكتوبة قبل ذلك التاريخ · ثم جاءت حوادث ٢٦ يناير ، دليلا مؤلما مريرا على ظاهرة نقل العدوان مرة أخرى · فقد وجد العدوان فى حوادث ٢٦ يناير كبشا أغلى ثمنا وأسمن لحما من حادث السويس ، ولعلنا نفطن الآن الى أننا ازاء مشكلة حيوية لا بد لحلها من تعبئة كاملة لكل قوانا · وقد أردنا بهذا الحديث وما يتبعه من مناقشة أن يكون بداية لتعبئة ما نملك بوصفنا علماء نفس ·

★ ★ ★

يخلص لنا مما سبق أن مركز مشكلة التعصب الذى تدور حوله كل مظاهرها انما هو العدوان وقابليته للنقل · ولابد لنا الآن أن نحاول الاجابة عن السؤال الذى تستثيره هذه النتيجة · اننا نعلم أن الظاهرات النفسية لا يمكن أن تتم جزافا ، فما الذى يدفع الى اختيار هدف ينتقل صوبه العدوان دون غيره ؟ وبعبارة أخرى ما هى الصفات التى يجب أن تتوفر فى موضوع بعينه حتى يصلح أن يكون كبش فداء ؟

(*) هى الحوادث التى أضرمت فيها النار فى مواقع كثيرة بالقاهرة أثناء حركة النضال الوطنى المسلح ضد الاحتلال البريطانى فى منطقة قناة السويس ١٩٥١/١٩٥٢ ·

لقد تسمحون لى هنا أن أستعين بخبرتى الاكلينيكية ، فقد أتيح لى أن أعالج بالتحليل عددا من الأقباط ، فضـــلا عن من عالجت من الكاثوليك الفرنسيين ومن اليهود · ونحن نعلم أن التحليل النفسى ينفرد من بين فروع الطب بميزة هامة ، وهى أنه يضم فى عملية واحدة طريق العلاج وطـريق البحث ، فضلا عن ظاهرة التحويل التى تنشأ أثناء العلاج ـ وهى فى نهاية الأمر نوع من النقل ـ تمكن المحلل من أن يستوضح مستغلقات النفس فى ظروف هى نفس ظروف البحث التجريبى ، من حيث أن التحويل يحقق بعثا فى نطـاق محدود معلوم لجميع المقومات النفسية ·

اليكم حلما لمريض قبطى : رأى عددا من الأطفال يصيحون ويعبثـون ، ثم التقى بمكرم عبيد باشا وقال له «لا تلتفت اليهم فانهم مسلمون متعصبون» ولابد أن أذكر أن هذا المريض كان يفصح عن مقاومته فى الجلسات السابقة بفترات طويلة من الصمت ، ثم أعرب عن ظنه أننى لابد أن أفضـل عليه غيره من المرضى ممن ينطلقون فى الحديث ، ومن بين الخواطر التى تداعت له مع هذا الحلم ، أنه لمح عندى فى اليوم السابق مريضة كان يبدو عليهـا البشر والارتياح ، مما يدل ـ فى نظره ـ على أننى أعالجها علاجا جيدا · ثم انتقل بعد برهة الى الحديث عن اخوته وأخواته ، وكيف أنه كان لا يطيـق أن يرى أمه تختصهم بشىء من العطف ، أو أن تذكر مناقب أحدهم · يتضـح اذن أن مكرم عبيد باشا فى هذا الحلم كان يمثلنى ويمثل أم المريض ، وأن الحلم يدور حول الغيرة من الأخوة والأخوات وتنافسـهم فى حب الام · والخلاصة أن الاتهام بالتعصب وهو يتضمن الشعور بالتعصب ـ قد يستخدم فى ميدان المنافسة بين الأقران كوسيلة لاسقاط (*) الكراهية على الشخص المنافس ·

لننتقل الآن الى عامل آخر من عوامل اختيار كبش الفداء فى ظاهرة التعصب · ولكى نفهم طبيعة هذا العامل يجب أن نذكر أن اعتناق الطفـل للمعانى الدينية ، لا يبدأ حقيقة الا فى مرحلة الكمون حوالى سن السابعة ، أى

(*) الاسقاط اصطلاح يقصد به الصاق صفة ذاتية بشخص اخر تفاديا من رؤيتها فى الذات ·

عند نشأة الضمير الخلقى ، وبعد انتصاره على دوافع الكراهية ازاء الأب ، تلك الدوافع التى كانت تصطرع فى نفسه اصطراعا عنيفا ابان المرحلة الأوديبية (*) وهكذا فان الاذعان لسلطان الدين نوعا من الاسقاط للاذعان لسلطان الأدب ٠

على أن مكتشفات التحليل النفسى تدلنا على أن الانتصار على دوافع الكراهية نحو الأب ، لا يعنى فناءها ، وعلى أن هزيمتها لا تدوم الا بدوام مناهضتها ٠ ولما كان وجود فرد أو جماعة لا يذعنون لما نذعن له ، ولا يعبدون ما نعبد ، يكون دليلا على أن السلطان الذى أذعنا له غير مطلق ، فان هذه الجماعة تصبح أشبه شىء بمحرض لدوافع الكراهية نحو التمرد ٠ والنتيجة الطبيعية من ذلك ، أنه لابد من محاربة الكافر بما نؤمن به ، حتى لا يتاح لعوامل الكراهية الذاتية أن تتمرد ٠

ويمثل تطور ظاهرة التحويل (**) هذه الحقائق أحسن تمثيل ، عندما يستعيد المريض الموقف الأوديبى ويلبس المحلل فى نظر المريض رداء المحرض، وذلك بسكوته على نهضة نزعات المريض نحو التمرد على السلطان الأبوى ٠ فاذا كان المريض يشترك مع طبيبه فى العقيدة الدينية ، فانه يوجه اليه النقد فى هذه الظروف فى عبارات تكاد تكون صدى لا يوجهه من نقد لعناصر التمرد فى نفسه ٠ أما اذا اختلفا فى العقيدة الدينية ، كأن يكون المريض قبطيا والمحلل مسلما ، فان المريض يقحم التعصب ويجعل منه هوة تباعد بينهما ٠ وبعبارة أخرى فان شعور المريض بالتعصب فى هذه الظروف ، انما هو ابقاء على النظام الذى أقامه فى نفسه لضبط تمرده ٠

أما العامل الثالث فى تبرير التعصب أى فى اختيار كبش الفداء ، فهو فى نظرى أهم من العاملين السالفين ، لأنه ألصق منهما بغريزة حفظ البقاء ، ولهذا فانى أميل الى تسميته بالعامل النرجسى (***) ٠

(*) المرحلة الاوديبية تقع بين الثالثة والسادسة من العمر يعانى أثناءها الطفل الذكر شعورا بالكراهية نحو أبيه الى جانب شعوره بالحب له ٠

(**) أى تلك الانفعالات التى يستشعرها المريض نحو المحلل أثناء العلاج ٠

(***) نسبة الى نرجس فى الاسطورة اليونانية الذى اغرم بحب نفسه ٠

لا شك أنكم تعلمون أن المريض يبادرنا فى بدء التحليل بنوع خاص من المقاومة ، تتلخص فى احساسه بأن التحليل يكاد يكون معولا يهـــدد كيانه بالدمار ، أو انه مجازفة حمقاء تعرضه لأشد الأخطار · ويجب أن أذكـــر أن الامر قد يكون كذلك بالفعل ، وعلى المحلل أن يميز منذ البداية بين الحـــالات التى تصلح للتحليل ، وتلك التى يخشى عليها منه ·

ولكى أبرز لكم قوة هذا النوع من المقاومة ، يجب أن نذكر أن الأصحاء الذين يخضعون أنفسهم للتحليل لغرض تعليمى ، لا يقل هذا النوع من المقاومة لديهم فى شدته عن مثيلها لدى المرضى · ذلك أن هذا النوع من المقاومة انما هو صدى لكفاح الكائن فى الدفاع عن النفس ، والدفاع عن النفس يعنى من الناحية السيكولوجية الاحتفاظ بالبناء الراهن للشخصية مهما كان فيه من عوج ، ومهما كلف ذلك من الشقاء ، حتى لنجد بعض الأفراد وقد تحصنوا فى نوع من القلاع التى لا نفاذ اليها ·

وتتخذ هذه المقاومة اشكالا مختلفة ، منها هذا النذير بالخراب والدمار الذى تترجم عنه الأحلام فى صور تهدم البيوت أو تساقط القنابل ، أو التحذير من فتك الميكروبات (كما ترجم عنه حلم مريض فرنسى أثناء وباء الكوليرا الأخير فى مصر (*) ، ونسب مصدر الوباء الى شخصى) ، او بتمثيل المحلل بلص قاطع طريق يسطو على أمتعة الناس ، أو بمدير لمقاصف اللهو والدعارة التى لا ينتظر من غشيانها الا الشر · فاذا اختلفت عقيدة المحلل وعقيدة المريض من الناحية الدينية ، فان المريض قد يتخذ من التعصب درعا يتقى به شر المحلل ·

ولابد لنا أن نتبين السبب الذى يدعو الى اتخاذ التعصب وسيلة للدفاع عن النفس · وهنا يجب أن نذكر أن الطفل عندما يقلع عن أوهام القـــدرة المطلقة التى تبعث فيه الشعور بالأمان ، وتزوده بالطمأنينة ، لا يلبث أن يتوحد بأبويه ، وفى مرحلة تالية يتوحد بالطائفة أو المجتمع الذى ينتمى اليه، ويخلع عليه كل صفات الكمال التى تكفل تزويده بالأمان والطمأنينة · وغنى عن البيان أن كل ما من شأنه أن يشير الى أن خصائص الطائفة ليست الكمال

(*) عام ١٩٤٧ ·

نفسه ، وأن ثمة من العقائد المغايرة ما يدعو الى الشك فى هذا الكمال ، فان ذلك يبعث القلق ويحفز للدفاع عن النفس ٠

ويمكننى أن أشير بهذا الصدد الى الخلاف الخـــاص بين المسيحية والاسلام كما استطعت أن أتبينه من خبرتى الاكلينيكية ٠ فالمسيحية تعترف فى صراحة بالخطيئة الأولى ، ثم تعمد الى التكفير عنها بقبول فكرة صلب المسيح (وهو ما يراه المحللون رمزا للاخصاء) ٠ على أن العقاب بالصلب لم يقـع الا لشخص المسيح الذى يقوم بوظيفة كبش الفداء أو المخلص ٠ أما الاسـلام فانه ينكر حادث الصلب بتاتا (أى ينكر وقوع الاخصاء) ويعتبره وهما ، « ولكن شبه لهم » ٠ أما وقد أنكر الاسلام الصلب فقد أنكر ما يوجب مثل هذا العقاب الشنيع ٠ وبعبارة أخرى فان النظرية المسيحية تقترب اقترابا خطيرا من صراعات الطفولة المكبوتة اذ تعترف بالصلب وبالتالى تستثير قلق الاخصاء لدى المسلم ٠ أما نظرية الاسلام فانها بانكارها الصلب تلغى بهذا الانـــكار طريق الخلاص فى نظر المسيحى وتستثير فى نفسه قلقا شديدا ٠ ومهما يكن من أمر هذا التفسير الخاص ، فان العامل النرجسى يؤيده، اســـقاط الذات العليا (*) على زعيم الطائفة أو الفكرة التى تقوم مقام الزعيم ، ويتجه تيـار الحب الى شخص الزعيم الذى تقمص الذات العليا للافراد ، بحيث تقـــوم المحبة مقام الرباط الذى يضم أفراد الطائفة جميعا ، ويناضل الأفراد فى سبيل الطائفة كما يناضل الحبيب فى سبيل حبيبه ، كما بين فرويد فى رسالته عن سيكلوجية الجماعة ٠

وينبغى لى أن أشير الآن الى نتـــائج بحث قام به الزميل عبد المنعم المليجى (٣) ٠ فى تطور الشعور الدينى لدى الأطفال والمراهقين المصريين ٠ والذى يستلفت النظر فى نتائج بحثه للاتجاهات الدينية أنه تبين له أن هنـاك أربعة اتجاهات رئيسية : الايمان التقليدى والحماس الدينى والشك والالحاد، وأن نسبة الايمان التقليدى لدى المسلمين لا تعدو ٤٧٪ على حين أنها ٨١ر٦٪ لدى المسيحيين ، ثم ان نسبة الشك ٢٥٪ لدى المسلمين على حين أنها صفر لدى المسيحيين ٠ أما الالحـاد فنسبته ١٪ لدى المسـلمين وصـــفر لدى المسيحيين ٠

(*) اصطلاح يشير الى الضمير الخلقى وينشأ من اعتناق شرائع الاب الخلقية ٠

وواضح أن هذه النتائج تتفق مع ما قدمناه من اعتبارات فى الدفاع النرجسى · فالمسيحيون فى مصر أقلية ومن ثم كان لابد لهم من قدر من التكاتف والتوحد بالطائفة ، دفاعا نرجسيا عن النفس ، أعظم مما يحتاج اليـــه المسلمون ·

على أنه يبدو أن التوحد بالطائفة الدينية أيا كان نوعها وعددها ، أكثر أنواع التوحد فى الشرق الأوسط ، كما تدل على ذلك الاختبارات التى أجريت على الاتجاهات الاجتماعية لطلاب الجامعة الأمريكية ببيروت (٤) ، وهى تضم شبانا من معظم طوائف الشرق الأوسط · فقد أجرى على ١٧٠ طالبا من طلاب هذه الجامعة اختبار ذو خمس درجات فى التباعد الاجتماعى · ويقصد بالتباعد الاجتماعى مبلغ تقبل الأرمنى للتركى مثلا أو اليهودى للمسلم · ففى الدرجة الأولى صيغ التباعد فى العبارة الآتية : اذا أردت الزواج فانى أتزوج من واحدة منهم ، وفى الدرجة الرابعة صيغ فى عبارة : لا أرتاح لمصاحبة هؤلاء الناس ، وفى الدرجة الخامسة : وددت لو قتلوا جميعا · وكان بين المختبرين نحو ٩٠ تباعدا من ناحية القومية و ٦٦ من ناحية الدين و ١٥ من ناحية الحالة الاقتصادية · وقد استوثق من ثبات هذا الاختبار ومن صحته بالطرق المألوفة · ومما يدل على صحة هذا الاختبار أن الطوائف التى كان يتوقع أن يكون التبـــاعد بينها على أعظم درجـــة ، مثـــل التباعد بين عـــرب فلسطين اليهود ، أسفر الاختبار بصددها عن النتائج المتوقعة ·

وقد أسفر هذا الاختبار عن نتائج هامة كثيرة خليقة بان تسترعى اهتمام علماء النفس والاجتماع فى الشرق الأوسط ، وبأن تحفزهم على دراستها والمضى فى هذا النوع من البحث ·

أما النتائج التى تتصل بهدفنا اليوم فهى ان أعظم درجات التباعد كانت بين الفئات الدينية ، أى على أساس العقيدة الدينية · وبعبارة أخرى ، فان الاتجاهات المتصلة بالانتساب الى طائفة دينية بزت فى قوتها جميع الاتجاهات الأخرى المتصلة بالقومية أو الحالة الاقتصادية أو التعليمية وما اليها ، ويعلق المختبر على ذلك بالاشارة الى قوة الرابطة الدينية فى الشرق الأوسط · كما يدل عليها توزيع المنشآت والأحوال الاجتماعية ، مثل السكن فى أحيـــاء بعينها ،

وقيام مدارس طائفية ، ثم اختلاف الشرائع والمحاكم الخاصة بالأحـــوال الشخصية · بل ان التمثيل السياسى نفسه يخضع للاحوال الطائفية ·

ويضيف المختبر الى ذلك قوله ان هذه النتيجة التى أسفر عنها الاختبـار تختلف عما أسفرت عنه مثل هذه الاختبارات فى أمريكا · ومن تحصيل الحاصل أن نقول انه اذا كانت الرابطة الدينية فى الشرق الأوسط تفوق فى قوتهـــا غيرها من الروابط ، فانما يرجع ذلك الى ضعف الروابط الثقافية الأخـــرى وخاصة رابطة القومية · ويكفى أن نذكر أن رابطة القومية بالنسبة للمصريين كانت منذ نحو نصف قرن واهية هزيلة ، بالقياس الى الرابطة الدينية ، حتى احتاج بعض قادة الرأى وأخص بالذكر منهم لطفى السيد باشا ، أن يذكر مواطنيه فى الجريدة ، أن الوطنية يجب أن تكون محدودة بحدود مصـــر الجغـــرافية ·

وغنى عن البيان أن الرابطة الدينية فى الشرق الأوسط تقوم مقام الرابطة القومية فى بلاد الغرب ، من حيث وظيفة الابقاء على الكيان والدفاع عن النفس ، وأن قيام الرابطة الدينية بهذه الوظيفة انما هو نتيجة طبيعية لفعـل عوامل سياسية وتاريخية حالت دون نمو الروابط الثقافية الأخرى بحيث تحل محل الرابطة الدينية · ولا زالت بعض بلدان الشرق الأوسط تتلمس الطـريق لبناء شخصيتها الدولية ، فنسمع مثلا عن مشروع سوريا الكبرى ، أو بعض مشاريع الجامعة العربية · ولعل خير مثل على ما تقدم هو فلسطين ، فلم تكد تعرف فلسطين لنفسها كيانا يقوم على القومية ، وكانت تحس قبل قيام اسرائيل بالخطر يهدد هذا الكيـان ولما يكتمل ، فكان من الطبيعى أن تكـون الرابطة الدينية بالنسبة لعرب فلسطين أقوى الروابط اطلاقا ، حتى أن بعض قادة الرأى منهم كان يدعو الى ضم فلسطين الى مصر أو الى سوريا ، وواضح أن اكتمال الكيان الدولى والتقدم والتطور الحضارى يستتبع احلال الروابط التى تستند الى القومية محل الروابط الدينية ·

والآن ينبغى لى قبل أن أترك الحديث فى هذا العامل الذى سميته بالعامل النرجسى وربطت بينه وبين غريزة حفظ البقاء ، أن أناقش معكم مشـــكلة من هذه المشاكل التى تعودنا مناقشتها كما ذكرت كلمة الغريزة · فنحن نعلم

أن بعض قدامى علماء النفس قال بوجود غريزة « الشعور بالنوع » وبوجود ميل غريزى « لكراهية ما هو مغاير » · وفى اعتقادى أننى لست فى حاجة الى مناقشة طويلة لبيان تفاهة هذه النظريات · فقد تقدمت الدراسات النفسية تقدما جعل هذه النظريات تشبه تفسير أرسطو للابصار بأنه شعاع يخـرج من العين الى الأشياء · فلو كانت كراهية ما هو مغاير غريزة ، لكانت خاصية تحملها الكروموسومات فتنتقل بالوراثة الى جميع أفراد الجنس أو الطائفة ، ولاستحال عند ذلك أن يتزوج مسلم من قبطية أو قبطى من يهودية ، ولو كان تعصب البيض ضد الزنوج غريزة لما تزوج مصرى من زنجية أو فرنسية من زنجى ، وكلنا نعلم أن هذه وقائع نشاهدها من حين لآخر ·

بقى أن بعض البحوث الحديثة وأخص بالذكر منها بحوث رينيه شبتز(٥) كشفت عن ظاهرة هامة تتصل بهذا الموضوع · فقد تبين أن الطفل يمر فى الشهر الثامن من عمره بما سماه شبتز بأزمة الشهر الثامن · وخلاصتها أن الطفل يبدأ عند ذلك فى التمييز بين أهله وبين الغرباء ، وأنه يجفل جفولا شديدا من رؤية الغرباء · وفى لغتنا الدارجة لفظ يستخدمه النساء فى مخاطبة الغير فيقلن «يا ادلعدى» ويغلب أن أصله «يا هذا العدو» ، كأن الغير والعداوة صنوان · أما أزمة الثمانية أشهر فمهما يكن من أمر تفسيرها ، فالذى لا شك فيه أنها ترجع الى أن الطفل يكون الى ذلك السن فى غمرة الطمأنينة ، التى تتألف من ارتباط خبرات الرضى والأمن بشخص أمه ، وأن نضجه الفسيولوجى فى الشهر الثامن يهيؤه الى الخوف عندما يدرك وجود أشخاص لم ترتبط بهم خبرات الرضى ، فكأن الاشفاق والخوف من امتناع الرضى والأمن هو الشرط الأساسى فى بزوغ الشعور بالغير وبالتالى بالذات · والذى يهمنا من هذا كله أن أزمة الثمانية أشهر انما هى نتيجة لخبرات معينة أى لعملية تعلم ، كمـا أن هذه الأزمة لا تلبث أن تمر بسلام عندما تسبغ الأم على الغرباء نفحة من عبيرها الذكى ، أى عندما يتعلم الطفل تحت ارشاد أمه أن مجىء الغـرباء لا يقتضى حتما غيابها أو امتناع الأمن ·

★ ★ ★

انتهيت بذلك من العامل الفرجى فى تبرير التعصب ، وينبغى أن أذكر أن هناك عوامل أخرى تكشف عنها التجارب الاكلينيكية ، ولكنها قطعا أقـل أثرا من العوامل السابقة بل هى نتيجة لها ·

فهناك مثلا عامل اسقاط الذات العليا عندما تكون كارهة غضـــوبة · واليكم حلما لمريض مصرى مسلم · رأى النحاس باشا ومكرم عبيد باشـا يتناقشان ، وكان مكرم باشا ينظر الى النحاس باشا شذرا · ومن الخواطر التى تداعت لهذا المريض مع هذا الحلم ، أن مكرم باشا قال عنـــدما تزوج النحاس باشا وأقبل على الدنيا ونعيمها : « « اذا اشتهى فقـد انتهى » · وتدل مجموعة خواطر المريض على أن النحاس باشا يمثله فى رغباته فى الاستمتاع بملذات الدنيا ، وأن مكرم باشا ــ وقد ذكر بصدده أن الأقباط لا يضمرون خيرا للمسلمين ــ يمثل ضميره الصارم ينذره بالويل والثبور ، ويصدر حكمه عليه بالفناء اذا سولت له نفسه الاشتهاء · وواضح أن اسقاط مثل هذه الذات العليا القاسية ، غير المنسجمة مع باقى جوانب الشخصية ، حتى لتكاد تكون عنصرا غريبا فيها ، يتوقف على تاريخ ســـابق خلع على الطوائف الأخرى مسخة المضطهد الواقف بالمرصاد ·

وهناك غير ذلك عوامل ثانوية أخرى ولكنى أكتفى بهذا القدر فلم أقصد الى الحصر ولا الى الاستقصاء الكامل ، وينبغى لى الآن أن أذكر أننا أطباء ، وأن علينا واجب العلاج بعد واجب التشخيص · على أننى مع ذلك أحب أن أقرر أننى لا أعتبر ما تقدم تشخيصا وافيا ، وانما لا يعدو ذلك أن يكون طرحا للمشكلة ، وواجبنا أن نمضى فى هذا النوع من البحث مزودين بأدوات البحث التجريبى والاكلينيكى وغيرهما ، لأنه من حسن الطـــالع أننا ازاء ظاهرات نفسية ، جعلت بطبيعتها طريق التشخيص وطريق العلاج واحدا ·

★ ★ ★

وبعد فقد وضح مما تقدم أنه لا سبيل الى ضبط العدوان فضلا عن نقله الا اذا عالجنا مصادر النقمة والحرمان الأصلية ، ومعظمهما كما رأينا ينشأ فى المحيط الداخلى · وغنى عن البيان أن هـــذا يقتضى دراسة الأحـــوال الاقتصادية ، ولابد لنا من الاستعانة فى ذلك بالاخصائيين فى علوم الاقتصاد·

على أنه ينبغى لنا أن نحذر من التعميم السريع لكيلا نرجع كل مشاعر الحرمان والسخط الى مصادر مادية · فقد دلتنا دراستنا السيكولوجية على أن المصادر النفسية قد تكون أعظم أثرا ، كما دلتنا على أن مسئوليتها تقـــع

أول ما تقع على أقرب المقربين أى على الأهل ، وهذا يفسر الضرورة الحيوية فى التوصل بكبش الفداء للتنفيس عن النقمة ، ولا أشك فى أن كل من أتيح له أن يتابع شيوع مظاهر القلق والضيق لدى طلاب المدارس والجامعات المصرية فى السنوات العشر الأخيرة ، قد أدرك أن هذه الظواهر تتصل اتصالا وثيقا بأحوال الأسرة المصرية ونماذج التربية فيها · لابد لنا اذن من دراسة تفصيلية لأحوال الاسرة ، وتحديد مدى ما تخلفه فى نفوس الناشئة من الافتقار الى الأمن ، ومبلغ قابلية الفرد فى المجتمع المصرى لاحتمال أسباب الحرمان التى لا مفر منها ، ومدى ما زودته التربية ـ فى الأسرة ـ بأدوات معالجة الحرمان معـــالجة رشيدة ·

بقيت مسألة أخيرة وهى غلبة التوحد الطائفى الدينى على غيـره من أنواع التوحد بالمنظمات الحضارية الأخرى فى الشرق الأوسط · وهذه مسألة تخضع للتطور النفسى الاجتماعى كما سبق أن قدمت · فان عدم استقرار النظم الحضارية الأخرى وتزاحم الحضارتين الغربية والشرقية فى الشرق الأوسط ، لم يترك للافراد غير سند التوحد الطائفى ·

وأخيرا يجب أن نذكر أن مظاهر العدوان والكراهية والنقمة لدى المرضى العصابيين تقل كثيرا بعد علاج نفسى ناجح ، ويحل محلها شعور بالتسامح ، مما يدل على امكان علاج مظاهر التعصب ، وهى فى نهاية الأمر مظهر للصراع وما يتضمنه من عدوان وكراهية ·

والخلاصة أنه يجب أن تخضع ظاهرة التعصب وغيرها من الظاهرات الاجتماعية للاسلوب العلمى فى وصفها وتحليلها وتعليلهـا اذ أن الأسلوب العلمى يتضمن بطبيعته الموقف الموضوعى الذى يتجرد الى أقصى حد مستطاع من تأثير الأهواء والدوافع الذاتية المغرضة ، وبالتالى فهو خير سبيل الى تحقيق التسامح ·

لنذكر ما جنته الانسانية من تطور موقفها ازاء الزيغ والانحراف النفسى فقد كان مرضى العقل يكبلون بالسلاسل ويعاملون أسوأ المعاملة كما لو كانوا أشرارا حتى جاء الطبيب الفرنسى بينل وفك قيودهم ونادى بمعاملتهم كمرضى

لا كأشرار · هكذا كان الحال ازاء المجرمين والأطفال المنحرفين فان الموقف العمى الحالى غير موقف المجتمع ازاءهم تغييرا تاما عاد بفائدة كبيرة على المجتمع نفسه · فلابد لنا اذن أن نقف الموقف نفسه فى ميادين الاجتمـــاع والسياسة اذ أردنا الوصول الى حلول فعالة ·

وقد بينا أن التعصب يؤدى وظيفة نفسية خاصة تتلخص فى التنفيس عما يعتلج فى النفس من كراهية وعدوان مكبوت وذلك عن طريق عمليتى النقـــل والابدال دفاعا عن الذات وعن من تحبه · فالمتعصب اذن يجنى فى موقفه كسبا ، غير أن هذا الكسب لا يختلف عما يجنيه العصابى من سلوكه الشاذ ، أى أنه كسب وهمى ناقص يفوت على صاحبه فرصة حل اشكاله حلا رشيدا واقعيا مجـــديا ·

وبعد فانى أرجو فى نهاية هذا الحديث أن تصح عزيمتنا على تجنيد قوانا لقتل التعصب بحثا ·

المراجـع

1. Hovland and Sears, Minor studies of aggression. Cited by Dollard, Miller and others; Frustration and Aggression. Yale University Press. New Haven 1939, p. 44.

2. Loewenstein : The Historical and Cultural roots of Anti-semitism in Psychoanalysis and the social Sciences, ed. by Roheim 1947.

3. عبد المنعم المليجى : تطور الشعور الدينى عند الفرد · رسالة الماجستير فى الآداب من جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ ·

4. Dodd, A social distance test in the near East, Amer. J. Sociol., 1935, 41 Cited by Murphy and Newcomb : Experimental Social Psychology, New York, 1937.

5. Spitz : Hospitalism. The Psychoanalytic Study of the child. New York 1945. I Anaclitic depression, ibid. II. 1946. The Smiling response. Genetic Psychol. Monogr. 1946, 34.

بعد القاء المحاضرة دارت مناقشة بين الحاضرين تم الاتفاق بعدها على القيام بدراسة ظاهرة التعصب وما يتصل بها من مشاكل الأسرة وذلك عن طريق استخبار ·